

الإعلام والحوار والحضارة

أ.د / أسعد السحمراني

أستاذ العقائد والأديان في جامعة الإمام الأوزاعي - بيروت
أمين الشؤون الخارجية في اتحاد الكتاب اللبنانيين

تمهيد :

إن عنوان هذا البحث يضم ثلاثة مصطلحات هي : الإعلام، والحوار، والحضارة، وكل واحد من هذه المفردات يحتاج لوقفه، وتحديد لما لها من تأثير كبير في حياة الفرد والمجتمع.

وإذا كانت وسائل الإعلام قد حققت تطوراً سريعاً على شكل طفرات نوعية في السنوات الأخيرة فإن الإعلام قد فرض تحدياً يحتاج استجابات كي يوظف هذا التقدم في وجوه مفيدة في مسار حياة الأمم والجماعات والأفراد؛ لأن الإعلام كأية وسيلة ابتكرها الإنسان، أو قام بتطويرها، سلاح ذو حدين؛ إما أن يوظف في الخير والصالح والصالح العام، أو أن يوظف في الهدم والإفساد والشر.

أما الحوار فإنه عنوان لفعاليات وأنشطة تعجّ بها المنتديات والمؤتمرات، وشاشات التلفزة، وصفحات الكتب والدوريات، وبرامج الإذاعات، ومواقع الشبكة البيانية (Internet)، لكن الحوار كي يكون مجدداً يحتاج إلى ضوابط وممارسات على مختلف المستويات.

وتبقى الحضارة التي هي ما تنجزه كل أمة في عالم الفكر والاكتشاف والاختراع، وفي أنواع الأدوات والمقتنيات، وهذا شأن إنساني فيه الكثير من المشترك، كما أن الحضارة كلما تقدمت كانت في صالح الإنسان المستخلف في الأرض تحقيقاً لسعادته، أو قد تكون في غير صالحه، لا بل سبباً لشقائه إن وظّفت منجزات الحضارة في السيطرة، والاعتصاب، والهيمنة والنهب.

وقفه مع المصطلح (الإعلام) :

والإخبار والإنباء مصطلحات تدور حول دلالات متقاربة. وعند الراغب الأصفهاني :

"الإعلام: اختصّ بما كان بإخبار سريع، والتعليم: اختصّ بما يكون بتكرير وتكثير حتى يحصل منه أثر في نفس المتعلم." ^(١) وقال الراغب الأصفهاني: "خبر: الخبر؛ العلم بالأشياء المعلومة من جهة الخبر... وأخبرت: أعلمت بما حصل لي من الخبر... وقال الله تعالى: ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَنْخَبَارِكُمْ﴾ (٩٤) ﴿التوبة﴾، أى من أحوالكم التي نخبر عنها" ^(٢).

وقال كذلك: "نبأ: النبأ خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظنّ، ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة، وحقّ الخبر الذي يقال فيه نبأ أن يتعرّى عن الكذب... ولتضمن النبأ معنى الخبر يقال: أنبأته بكذا كقولك أخبرته بكذا، ولتضمنه معنى العلم قيل: أنبأته كذا كقولك أعلمته كذا" ^(٣).

إن تداول الأخبار والخبرات، ونقل العلوم والمعارف، لا يكونون دون إعلام وإنباء وإخبار، وذلك لا يكون دون وسائل ووسائط، وبذلك ارتبط الإعلام بالوسائل. وقد ذهب هذا المذهب "المعجم العربى الأساسى" حيث جاء فيه: "إعلام: النشر بواسطة الإذاعة والتلفزيون والصحافة. ووزارة الإعلام: الوزارة المسؤولة عن إعلام الدولة، أى المعلومات التى ترغب الدولة بنشرها، ولذا فهى تشرف على الإذاعة والتلفزة والصحف" ^(٤).

١ - الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق نديم مرعشلى، بيروت، دار الكتاب العربى،

سنة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م، ص ٣٥٦.

٢ - الراغب الأصفهاني، م.س.، ص ١٤٢.

٣ - الراغب الأصفهاني، م.س.، ص ٥٠٠.

٤ - المعجم العربى الأساسى، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، لاروس، تونس، سنة ١٤٠٨هـ -

١٩٨٨م، ص ٨٦٠، ٨٦١.

هذا التحديد يُحدد سلطوى وتقليدى؛ لأن الإعلام بات يشمل وسيلة جديدة هي الشبكة البينية (أنترنت)، ووسائل الإعلام منها ما هو حكومى قد يصح فيه ما قاله "المعجم العربى الأساسى"، وربما أصبح هذا الإعلام هو الأكثر عدداً وأوسع انتشاراً، وكل مالك لمؤسسة فرداً كان أم مؤسسة له أفاهيمه ومشروعه السياسى والاجتماعى والاقتصادى والفنى، ويوظف هذا الإعلام فى خدمة مشروعاته هذه وأغراضه.

وجاء فى "معجم النفائس الكبير": "أعلمه الخبر وبالخبر: أخبره به.

... الإعلام: الإسراع فى الإخبار، ومنه وسائل الإعلام، وهى مرئية ومسموعة ومقروءة" (١).

تأسيساً على ما تقدم يكون الإعلام سبيلاً لنقل أخبار الحوادث ومجريات مختلف الشؤون فى الأوطان والأمم فى العالم قاطبة، ويهدف الإعلام إلى نشر أطروحاته وتسويقها من أجل صناعة رأى عام باتجاه تريده هذه الوسائل الإعلامية وتلك، ويصح القول: "إن الإعلام هو مصدر تزويد الناس بالأخبار والمعلومات كى يسهم ذلك فى جلاء الحقائق، وتبيين الوقائع من أجل أن يساعد هذا الأمر فى صنع الرأى والاتجاه تمهيداً لصنع القناعات.

وإذا كان لكل علم ميدانه الذى يفعل فعله فيه، فإن ميدان الإعلام هو العمل مع الإنسان، فالإنسان هو المحور فى العملية الإعلامية فكراً ووجداناً حتى من الناحية المادية" (٢).

لقد جاء البلاغ الإلهى فى النص القرآنى مؤكداً على أن استخلاف الإنسان فى الأرض ترافق مع نعمة إلهية انفرد بها الإنسان هى أن الله تعالى قد علم آدم الأسماء

١- معجم النفائس الكبير، إشراف أ. د. أحمد أبو حاق، بيروت، دار النفائس، ط ١، سنة ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، ص ١٣٢٠.

٢- السحمرانى، أسعد، الإعلام أولاً، بيروت، دار النفائس، ط ١، سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، ص ٢١.

كلها، وبعد أن علم آدم بإمكانه إعلام غيره وإخباره بما علم، وكان أمر الله تعالى له: "أنبئهم". قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١)﴾ «البقرة»، وقال الله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٢)﴾ «البقرة».

إن علم آدم الأسماء هو الذى مكّنه بأن ينبئ الملائكة ويخبرهم ولو لم يكن عنده علم لما تمكن من الإنباء وإعلام الآخرين. والإعلام يقوم به من امتلك العلم، أما من جهل فإنه لا يستطيع الإعلام والإنباء؛ لذلك سلّمت الملائكة عند العجز عن الرد بسبب امتلاك آدم علم الأسماء الذى لا تجيده. وهذا أصل فى الإعلام، فالعلم والصدق من مقومات حامل الرسالة الإعلامية، أما من كان جاهلاً ومحملاً بالشائعات والأوهام فإن ما ينشره يكون أكاذيب لذلك يكون الحوار محتاجاً لإعلامى عالم وصادق.

الحوار:

الحوار حاجة إنسانية ملازمة للإنسان منذ آدم الأول، فالإنسان الذى يأنس بسواه من بنى جنسه، يكون تواصله مع ذاته حواراً داخلياً تأملياً، وحواره مع غيره كلاماً وأقوالاً تحوى مواقف وآراء، أو أفاهيم ومعارف، والحوار أول سبل التقارب والتلاقى والتعاون، أو قد يكون سبباً للتباعد والنفور.

إن الحوار ضرورة بشرية كى يتعارف الناس من خلاله، ويتفاهموا، والغائية التى تحفز عليه هى التأسيس لعلاقات إيجابية بين المتحاورين توفر المناخات لعيش مستقر بين الناس.

والحوار هو تبادل الكلام بين طرفين مع التردد، واحتمال التراجع من قبل أحد طرفى الحوار. عند الراغب الأصفهاني: "حار الماء فى الغدير: تردد فيه... والقوم فى

حوار: فى تردّد إلى نقصان وتردد فى الحال بعد الزيادة فيها، وقيل: حار بعدما كان، والمخاورة، والحوار: المرادة فى الكلام" (١).

وقال ابن منظور: "الحوار: النقصان بعد الزيادة؛ لأنه رجوع من حال إلى حال، وفى الحديث: (نعوذ بالله من الحور بعد الكور)؛ معناه: من النقصان بعد الزيادة، وقيل: من فساد أمورنا بعد صلاحها، وأصله من نقص العمامة بعد لفّها، مأخوذ من كور العمامة إذا انتقض ليّها... وفى المثل: حور فى محارة، معناه نقصان فى نقصان، ورجوع فى رجوع" (٢).

إن البشر بحاجة لمراجعة أمورهم على مختلف المستويات، وفى مختلف الميادين، ولا تستقيم العلاقات، أو ينطلق مسارها بالشكر القويم إلا بعد مراجعة وحوار، وأخذ ورد فى الكلام والأفكار.

"الحوار هو المراجعة فى الكلام، أو الأخذ والرد بين شخصين أو طرفين، لكل منهما أفاهيمه أو أفكاره أو آراؤه أو مقترحاته، وتجاذب أطراف الحديث بين طرفين أو أكثر يهدف منه الوصول إلى لغة مشتركة، ومفاهيم متقاربة، وتشخيص موحد إن أمكن للأشياء كلّها، وللمشكلات كافة.

فالحوار لا تكون فيه معاندة، بل منهجه يستلزم أن يدخله الأطراف، وعندهم الجاهزية للتنازل أو للتراجع عما يبيّن لهم الآخرون عدم جدواه، أو الاستعداد للانتقال إلى ما يطرحه الآخر، إذا كان ما يطرحه محقاً فى مواجهة باطل ما" (٣).

والحوار الجدى هو الذى يقوم على العلم؛ لأن الجهل لا يكون معه حوار بل تعصب

١ - الراغب الأصفهاني، م.س.، ص ١٣٤.

٢ - ابن منظور، لسان العرب، م ٢، تحقيق عبد الله على الكبير وآخرين، القاهرة، دار المعارف، بدون تاريخ، ص ١٠٤٢.

٣ - السحمرانى، أسعد، الإسلام والآخر، بيروت، دار النفائس، ط ١، سنة ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م، ص ١٧.

وفئوية، كما أن الحوار يحتاج منهجاً يُعتمد؛ لأن الفوضى في تبادل الكلام دون تحديد للمنطلقات، ودون تحديد لمقاصد الحوار وغاياته، ودون تحرير لخل الحوار، والمقصود بذلك تحديد موضوع الحوار مع وقف الاسترسال والتفريع، كل هذه أمور تأسيسية لحوار يوصل إلى الموقع الإيجابي.

كما أن الحوار لا يجدى إن كان من طرف واحد وبلا ضوابط، أو أن يكون مقروناً باللبس وعدم الوضوح والشفافية في الطرح، فهو بذلك يكون حوار مجموعة أشخاص أصيبوا بالصمم، ومثل هذا الحوار لن يكون له تأثير، ولا توظيف سليم، ولا ثمار تجنى. ويحتاج الحوار لمعايير تحدد شروط قبول الآخر؛ لأن الحوار في أسمى مقاصده إنما يروم تحقيق عملية قبول الآخر. وهذا القبول لن يكون إلا مع وقف العدوان والظلم واغتصاب حقوق الآخرين، والإكثار من مننديات الحوار ومؤتمراته لن تكون مفيدة ما لم تكن معايير التلاقي والقبول محددة ومضبوطة.

أما المعايير لقبول الآخر والحوار معه عند المسلمين فقد أتت في نصوص تؤصل للقبول والحوار، أو تأمر بعدم القبول ووقف كل صلح أو حوار. قال الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨)﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)﴾ والمتحنة.

هذا ما يحتاج دعاء الحوار أن يتنبهوا إليه؛ إنه القبول أو الرفض. لأن "قبول الآخر وهو أساس ومبدأ يقوم على معايير وضوابط، وبالتالي يكون أمر القبول مرتبطاً بهذه المعايير، وبعد التعارف، والوقوف على ما هو عليه الآخر يكون النظر والموقف،

والموقف سيكون إما القبول، وإما الرفض، وفي الحالة الثانية تكون المواجهة لعدوان هذا الآخر وتجاوزاته" (١).

وإذا كان السائد في أيامنا ما هو متعدد، ومنه ما هو مقبول، ومنه ما هو عدوانى وينتهك الحرمات، فإن الحوار وتبادل الكلام والمجاوبة يكون مرة للتلاقى، وأخرى في إطار التصويب، وثالثة في إطار الممانعة والدفاع... إلخ.

الحضارة:

الحضارة أو الحضارة عند ابن منظور: "الإقامة في الحضر... والحضر والحضرة والحاضرة: خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار... والحضارة والحاضر: الحى العظيم أو القوم، وقال ابن سيدة: الحى إذا حضروا الدار التي بها مجتمعهم" (٢).

وفي معجم النفائس الكبير: "الحضارة: خلاف البادية، والمراد بخلاف البادية: الأمصار - الإقامة في الحضر - ومظاهر الرقى الفكرى والفنى والاجتماعى في المجتمعات. وحضارة الأمة: جملة مظاهرة التقدم فيها." (٣).

الحضارة هي إنجازات أمة في مختلف الميادين، وكل ما له علاقة بالإنسان وبالتقدم العلمى والتقنى وهو ما يسمى المدنية. ويترك البحث لابن خلدون ليتحدث عن الحضارة ومجتمع الحضر، فإنه يقول: "ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه دعاهم ذلك إلى السكون والدعة، وتعاونوا في الزائد على الضرورة، واستكثروا من الأقوات والملابس والتأنيق فيها، وتوسعة البيوت، واختطاط المدن والأمصار للحضر، ثم تزيد أحوال الرفه والدعة، فتجئ عوائد الترف

١ - السحمرانى، أسعد، م.س.، ص ٢٣.

٢ - ابن منظور، م.س.، ص ٩٠٧.

٣ - معجم النفائس الكبير، م.س.، ص ٣٩٧.

البالغة مبالغها في التألق في علاج القوت، واستجادة المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج، وغير ذلك، ومعالجة البيوت والصروح، وإحكام وضعها في تنجيدها والانتهاء في الصنائع في الخروج من القوة إلى الفعل إلى غاياتها، فيتخذون القصور والمنازل، ويجرون فيها المياه، ويعالون في صرحها، وبالفنون في تنجيدها، ويختلفون في استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش، أو آنية، أو ماعون، وهؤلاء هم الحضرة".^(١)

قبل الإبحار مع مصطلح الحضارة من المفيد أن يرد في البحث مصطلح الثقافة ويتم التعريف به، وبعدها تكون المقارنة، والثقافة في "لسان العرب": "ثقف الشيء ثقفاً وثقافاً وثقوفة: حذقه. ورجل ثقف وثقف وثقف: حاذق فهم... ويقال: ثقف الشيء وهو سرعة التعلم... وثقف... صار حاذقاً فطناً... وهو غلام لقن ثقف؛ أى ذو فطنة وذكاء، والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه".^(٢)

وفي "معجم النفائس الكبير": "الثقافة: أصل معناها الحذق والفتنة. العلوم والمعارف والفنون والآداب وشؤون الحياة التي يطلب الحذق فيها... وسميت ثقافة لأنها تثقف الإنسان وتقوم عقله وتفكيره وسلوكه".^(٣)

الثقافة خصوصية في كل أمة والحضارة إنجازات وثمار جهد الإنسان وإبداعه، وهي عامة يمكن تبادلها ونقلها من أمة إلى أمة. الثقافة تسمو وترتقى مع الارتباط بالأصول، والأصول والمبادئ فيها ثابتة راسخة، والحضارة تراكم في النوع والكم، وهي في خط تصاعدي يعتمد فيها اللاحق على السابق.

١ - ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، بيروت، دار القلم، بدون تاريخ، ص ٩٥، ٩٦.

٢ - ابن منظور، م.س. ١٤٠٠، ص ٤٩٣.

٣ - معجم النفائس الكبير، م.س، ص ٢٠٠.

لقد طرح مالك بن نبي مفهوماً يربط بين الثقافة والحضارة قال فيه :

"فالثقافة إذن تتعرف بصورة عملية على أنها : مجموعة من الصفات الخلقية ، والقيم الاجتماعية التى تؤثر فى الفرد منذ ولادته ، وتصبح لا شعورياً العلاقة التى تربط سلوكه بأسلوب الحياة فى الوسط الذى ولد فيه ، فهى على هذا المحيط الذى يشكّل فيه الفرد طباعه وشخصيته .

وهذا التعريف الشامل للثقافة هو الذى يحدّد مفهوماً ، فهى المحيط الذى يعكس حضارة معينة ، والذى يتحرك فى نطاقه الإنسان المتحضر . وهكذا نرى أن هذا التعريف يضمّ بين دفتيه فلسفة الإنسان ، وفلسفة الجماعة ؛ أى مقومات الإنسان ومقومات المجتمع ، مع أخذنا فى الاعتبار ضرورة انسجام هذه المقومات جميعاً فى كيان واحد ، تحدّثه عملية التركيب التى تجريها الشرارة الأولى عندما يؤذن فجر إحدى الحضارات" (١) .

الثقافة هى الهوية ، وتشمل بالنسبة للفرد والمجتمع والدين والفكر واللغة والآداب والعلوم والفنون والأعراف والتقاليد ، فكل هذه الأمور المذكورة تعدّ مقومات الثقافة والهوية بالنسبة للفرد والمجتمع ، وهذه الثقافة أمام التحديات تحفز الفرد والمجتمع إلى الاستجابة ، وتشكّل الاستجابات فى إنجازات ، ووجوه من التقدم والابتكار والاختراع والتطوير ، وهذه تجمعها كلها مفردة حضارة . فالثقافة هوية راسخة ، والحضارة إنجازات متحركة حراكاً سمتته التقدم والتطور .

نخلص إلى القول : "الثقافة أمر ينطلق من ذات الإنسان ، ويحمل معنى التقويم والتنقية ، رُقياً بهذه الذات باتجاه معانى الخير والحقّ والعدل والجمال ، وسائر القيم . والثقافة ، فى جوهرها ، عملية إطلاق للطاقات باتجاه توليد وعى جمعى يشكّل الهوية

١ - ابن نبي ، مالك ، مشكلة الثقافة ، دمشق ، دار الفكر ، سنة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م ، ص ٧٤ .

التي تقود وتطبع الحضارة بطابعها، وهي عندنا العقيدة والنظرة إلى الكون، ومجمل المبادئ والأسس والقيم التي نؤمن بها ونلتزمها ونعمل على تطبيقها، وهي كل ما يميز شخصية الأمة من لغة وفكر وفنون وعلوم وتقليد وأعراف^(١).

إن الثقافة تقود الحضارة، وتضع لها الضوابط، والثقافة فيها القوانين الناظمة لمسار الحضارة، وهذه القوانين هي في حقيقتها منظومة قيمية تنظم حركة الانجاز الحضارى، وحركة التعامل مع الانتاج الحضارى، وفق المعايير التي تحويها دينياً واجتماعياً ومثالياً. فالحضارة في دائرة الإسلام ومنظوماته القيمية تكون ثمارها واستخداماتها غير الحضارة في دائرة الفكر الليبرالي أو الماركسي، أو الفكر المادى الذى لا يعنيه سوى الكم والرقم.

بعد ذلك لا بد من تسجيل ملاحظة هي: إن الثقافات تكون بينها مواجهات وتناقضات، وفي أحسن الأحوال يحصل بينها تلاقح وقدّر من التأثير، أما الحضارات فهي القابلة للنقل والتبادل، إنما الشرط الأساس أن تخضع منجزات الحضارة عند نقلها من مجتمع لآخر إلى ثقافة الأمة التي تستخدمها وتستفيد منها، وهنا تكمن المشكلة. فهناك حالات - مثلاً - نجد فيها من ينقل البث الفضائي وأجهزته ومعه البرامج والاعلانات، وهذا مسلك وعر ويحوى مخاطر ستؤدى إلى مشكلات مع الهوية والانتماء والخصائص والخصوصيات.

إن الحوار الحضارى من خلال الإعلام يحتاج إلى تسجيل الملاحظة التالية: "إذا كانت الأمم مختلفة الشخصيات والمقومات الحضارية، فإن القضايا الإعلامية المكوّنة للرأى العام تكون مختلفة، وفي هذه الحالة لا يصحّ النقل والاقتباس الحرفى، طبعاً لا مانع من الاطلاع والاستفادة مما عند الآخرين، لكن إذا تمّ النقل الحرفى فهذا الأمر عندها

١ - السحمرانى، أسعد، ويلات العولمة على الدين واللغة والثقافة، بيروت، دار النفائس، ط ١، سنة

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ص ٨٢، ٨٣

يدخل فى باب الإعلام المتناقض مع شخصية الأمة، وهذا ما يُنتج الضلال، ويترك ردّات فعل فى غير الصالح العام" (١).

هل الإعلام الغربى يقدم فضاء للحوار؟

إن الإعلام الأوروبى والأمريكى بمعظمه لا يؤمن فضاء مناسباً لإطلاق الحوار الحضارى أو سواه مع العرب والمسلمين، وربما مع معظم دول آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية. فهذا الإعلام ينطلق من رحم ثقافى حاضن له تختلف قيمه مع قيم العرب والمسلمين، وكثيراً ما تكون متناقضة، وأحياناً - وهذا السائد إلى حد كبير - تزور الحقائق، ولا تلتزم الصدق ولا الموضوعية، ولا تحترم الخصائص ولا حقوق الآخرين وخصوصياتهم، وهذا ما يدفع إلى التوتير، وردّات الفعل، والتدابير والخصام، وكل ذلك يصبّ فى غير مصلحة مسيرة حوار ضرورى من أجل استقرار العلاقات الدولية.

إن الإعلام على المستويين الرسمى أو الأهلى؛ أى الذى يملكه أفراد أو مؤسسات خاصة لا يقوم بعمله مبتغياً "التعارف" كما وجه الإسلام فى الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (١٣) «الحجرات»، ولا يجده المتابع له وهو يطرح الأمور بغرض جلاء الحقائق، ونقل الجريات كما كانت، ولا هو يوظف طاقاته لتحقيق التعاون بين الأمم والشعوب من أجل سعادة الإنسان وهناءة الشعوب، وإنما هو إعلام فى غالبته القصوى مرتبط بسياسات، ومشروعات للهيمنة والتسلط تحت مسميات عديدة، هذه السياسات من العولمة إلى الاتفاقات غير المتوازنة، والمواثيق المعطلة، إلى الاستعمار والاحتلال والاعتصاب، كلها تلتزم استراتيجيات سياسية وفكرية واقتصادية ومالية واجتماعية وتربوية، ومعظمها تحفزها أطماع وحالات من الجشع، كما أنها تعتمد إلى مقاصدها من خلال التلاعب بعقول الناس فى الأمم المستهدفة.

١ - السحمرانى، أسعد، الإعلام أولاً، م.س.، ص ٢٤.

إن هذه المخرجات الإعلامية تعوّق الحوار، وتقطع السبل إلى التواصل، وهذا أمر يشكو منه غربيون يقلقهم هذا الخطاب الإعلامي من بلدانهم لأنه خطاب يشوش الحقائق ويزرع العداوة. قال هيرفى بورج رئيس الاتحاد العالمى للصحافة الناطقة بالفرنسية، والرئيس السابق للمجلس الأعلى للسمعيات والبصريات فى فرنسا: "خطر هو اليوم هذا الخلط الذى يقوم به الخطاب الإعلامى الغالب بين العرب أجمعين والارهابيين المرتبطين ببن لادن، بل هو خلط بين المسلمين جميعهم والأصوليين الذى يأترون له. وليس هذا الخطر - ضرورة - ناتجاً عن إدارة مقصودة أو عن قرار يقضى بالتلاعب بالرأى العام، أو قل انقلاباً إعلامياً يحلو للبعض التشهير به، فالحقيقة أبسط من ذلك، إذ إن وسيلة الإعلام انعكاس لرأى عام، وهى تستجيب أول ما تستجيب لما ينتظره منها ذلك الرأى العام، وهو أن الهيئة الاجتماعية برمتها ترفض القول الناشز زمن الحرب.

... والأيديولوجيا هى التى تنجز - بخطابها المحسوس والرمزى معاً- تحويل القريب إلى غريب، والأخ الإنسانى إلى خطر محتمل، والجار المسالم إلى قوة شرسة تهددنا" (١).

الذى تمّ ذكره تشخيص لواقع حيث الرأى العام فى الغرب يمارس ضغطاً على الإعلام كى يصنع له خطاباً يرضى الأيديولوجيا عنده، هذه الأيديولوجيا التى تخلط بين الإرهاب وبين الإسلام والمسلمين والعرب، ولهذه الغاية ترسم خيالات أهل الأقلام عندهم هواجس لأخطار وهمية مصدرها الآخر العربى والمسلم.

يتصرف الغرب حضارياً وأمريكاً ملحق أوروبى حضارياً بناء لوهم مفاده أن الحضارة واحدة، والاقتصاد واحد، والسياسة واحدة، والنمط النموذج الواجب اعتماده

١ - بورج، هيرفى، الحوار الثقافى العربى الأوروبى: متطلباته وآفاقه، فى: وقائع المؤتمر العربى الأوروبى للحوار بين الثقافات، باريس (١٥-١٦) / ٧ / ٢٠٠٢، ص ٨٥.

هو ما يسود عندهم، ونمطهم هو النموذج الصحيح فمن اتبعه كان حضارياً وإلا يكون متخلفاً ومتوحشاً إلى غير ذلك من النعوت الخشنة المقرونة بنظرة استعلائية تجاه الآخرين.

لقد عبّر عن هذه النزعة أرنولد توينبى منتقداً الموقف الغربى، حيث قال: "وما نظرية وحدة الحضارة هذه إلا رأى خاطئ تردى فيه المؤرخون الغربيون المحدثون تحت تأثير محيطهم الاجتماعى؛ وأوحى به منظر الحضارة الغربية الخداع، إذ استطاعت فى العصور الحديثة أن تلقى شبكة نظامها الاقتصادى على جميع أنحاء العالم.

وتلى توحيد العالم اقتصادياً على أساس غربى، توحيده سياسياً إلى نفس المدى تقريباً وعلى نفس الأساس الغربى... وإنه وإن كانت هذه حقائق ملفتة للنظر، إلا أن اتخاذها دليلاً على وحدة الحضارة، رأى سطحي؛ لأنه وإن اصطبغت المصورات الاقتصادية والسياسة بالصبغة الغربية إلا أن المصور الثقافى ما يزال فى جوهره على حاله... على أننا مع التجاوز عن الأوهام التى ترتبت على نجاح الحضارة الغربية مادياً على نطاق عالمى، نجاح قاد إلى الفكرة الخاطئة القائلة بوحدة الحضارة بما تتضمنه من افتراض نهر واحد للحضارة وليس إلا، وهو الغرب، وإن جميع ما عداه إما روافد له، أو ضائع فى رمال الصحراء، فإن لهذه الفكرة ثلاثة جذور:

الأول: وهم حب الذات.

الثانى: وهم الشرق الراكد.

الثالث: وهم التقدم كحركة تلتزم خطأً مستقيماً"^(١).

هذا التشخيص الذى عرضه أرنولد توينبى للأفاهيم الغربية من زعمهم أن الحضارة واحدة، إلى اتهام الشرق بأنه راكد لا حراك حضارى فيه، إلى حالة الاستعلاء

١ - توينبى، أرنولد، مختصر دراسة للتاريخ، ج ١، ترجمة فؤاد محمد شبل، راجعه أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة، الإدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية، ط ١، سنة ١٩٦٠، ص ٥٩ وما بعدها.

التي تسيطر عليهم وصولاً إلى الادعاء بأنهم المتحضرون الوحيدون دون الناس، كل هذه وغيرها كثير تشكل عقبات كأداء في طريق أى حوار حضارى في إطار النشاط الإعلامى أو سواه.

يضاف إلى ذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية ومعها قوى غربية وأنظمة حكم يتعاملون مع المسلمين والعرب وكثيرين غيرهم بعقلية نفعية، يضاف إليها خيالات تتشكل في "تصورات احتقارية كاريكاتورية، وتحاليل تبسيطية اتهامية حيرى، وذلك ما يبعث وضعية الصدام التي نحن فيها.

... وعلى غرار ما جرى زمن الحرب الباردة مع تصوير الاتحاد السوفياتى فى الاستديوهات الأمريكية، فإننا سنشهد عما قريب أخلافاً تتوالى سنة بعد سنة تصور البلدان العربية تصويراً مشيناً، وستظهر مسلسلات تعكس حواراتها تخوفاً من الجاليات العربية، وسيوجد فيض من الإعلام المنتظم بشكل حزمة من النقد الضمنى الموجه ضد البلدان العربية" (١).

إن المتابع يرى كيف تنشط الولايات المتحدة الأمريكية، "لتعميم نموذجها فى التكوين الفوضوى اللاأخلاقي للأسرة ولل علاقات بين الناس، ناهيك عن الإفساد من خلال فنونهم الهابطة، وتقاليدهم البائسة التى وصلت إلى حد الدعوة إلى عبادة الشيطان والتقرب إليه كما هو معلوم، ومن نماذج ذلك تشجيع مطاعم الوجبات السريعة وما تفعله فى تفكيك الأسرة وضرب الترابط بين أفرادها" (٢).

تأتى بعد ذلك مخرجات "هوليوود" من الأفلام، ومعها محطة "فوكس نيوز" التى يملكها ويشرف عليها القس المتصهين بات روبرتسون، وغير ذلك من إعلامهم الذى يصور الإسلام على أنه إرهاب، والمسلمون بأبشع الصور.

١ - بورج، هيرفى، م.س.، ص ٨٦.

٢ - السحمرانى، أسعد، ويلات العولمة على الدين واللغة والثقافة، م.س، ص ١٩.

هذا دون أن يغيب عن البال ما تناقلته الصحافة الدانمركية من رسوم كاريكاتورية تنال من النبى ﷺ، وكيف بررت السلطات عندهم الأمر بأنه حرية إعلامية علماً أن ذلك يتعارض مع موانيق حقوق الإنسان، وزاد فى البلة طيناً ما فعلته المستشارة الألمانية ميركل مؤخراً عندما كرّمت الرسام الذى خط ذلك الكاريكاتور. فهل يتيح هذا التصرف مجالاً للحوار؟

لقد شعر المنصفون فى الغرب بما يخلفه هذا الإعلام الموظف ضد المسلمين والعرب من حالات التوتير، وتعطيل أى حوار، ومنهم السويدي أنجمار كارلسون الذى قال: "انتبه السياسيون ووسائل الإعلام فى الغرب، غداة انهيار الكتلة الشيوعية إلى القيمة التسويقية للإسلام كخطر جديد يهدد الغرب. فظهر موجات وراء موجات من المقالات الصحفية والكتب والبرامج التليفزيونية، تتلخص موضوعاتها فى (الخطر الأخضر) و (الأصولية العالمية) و (التحدى الإسلامى) و (سيف الله) و (الإسلام ضد الحداثة) و (الانتفاضة العالمية)، وفى هذه المواد لاحظنا أن المؤلفين والمعدّين يتعاطون مع العالم الإسلامى ككتلة واحدة... كان هؤلاء المؤلفون يساوون بصورة مباشرة أو غير مباشرة بين الأصولية والتعصب وينتهون إلى نتيجة تبسيطية مفادها هذا هو الإسلام الحقيقى. وبنفس المنهج كانوا يماهون بين العالم العربى والعالم الإسلامى" (١).

هنا تكمن المشكلة التى تجعل الحوار الحضارى غير متاح، والتى تجعل الإعلام الغربى فى معظمه إعلاماً مشحوناً بالأيديولوجيا العدائية ضد الإسلام، وضد العرب والمسلمين، وتجعله إعلاماً معوقاً للحوار والتواصل، لا بل هو إعلام يولد التنافر

١ - كارلسون، أنجمار، الإسلام وأوروبا: تعايش أم مجابهة، ترجمة سمير بوتانى، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ط ١، سنة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ص ٢٧.

والخصام، وهو إعلام غير موضوعي ولا صادق عندما يعمم التهم، ويطلقها دون سند مجافياً للحقيقة، وبعد كل هذا كيف سيكون حوار حضارى من خلال الإعلام؟
إن الإعلام الأمريكى والغربى يصور العربى والمسلم قاتلاً وإرهابياً وينعت الإسلام بذلك.

لقد عرض انجمار كارلسون فى كتابه الواقعة التالية: "تعتبر رواية (الحاج) للكاتب الأمريكى ليون يوريس مقارنة أدبية لفهم الشخصية العربية تتجاوز أقصى حدود العنصرية المكشوفة... ولا يترك الكاتب يوريس أية كليشيه عنصرية ممكنة إلا ويستخدمها فى روايته. فعرب فلسطين مجرد نفر من الفقراء الجهلة يفتقرون تماماً للحياة أو لحسن المبادرة الشخصية. وتغلب عليهم الطباع العنيفة والخشنة، وتشيع فى أوساطهم الميول للتطرف والشذوذ الجنسى. إنهم باختصار فى نظر هذا الكاتب الأمريكى: رعاى متفسخون، متوحشون، يستولى عليهم دين جردهم من كل طموح شخصى فيما عدا قلة قليلة مستبدة متغطرة تقود بقية الرعاى كقطيع من الأغنام، إنهم مجتمع مجنون" (١).

ونترك التعليق لصحيفة صهيونية هى "جيرزاليم بوست" التى جاء فيها حول هذا الكتاب: "إنه يجعل متطرفاً يهودياً مثل مائير كاهان يحمر خجلاً".
إن هذا الفكر العنصرى الذى صاغه قلم كاتب أمريكى هو نموذج لأدبيات كثيرة انتشرت وتنتشر فى الغرب فى أكثر من بلد، ويتناقلها الإعلام دون ضوابط ولا احترام لحقوق دينية أو اجتماعية أو قيمية، لا بل يتجح بعضهم بها مستهتراً بكل القيم.
يذكر المتابعون تلك الدعاية المقيتة لعصير "كوكا كولا" عام ١٩٩٨ عندما نشروا إعلاناً عبارة عن ستارة تغطى الحجر الأسود فى الكعبة المشرفة عليها اسم الشركة (coca cola) وأمام الإعلان فتاة مسلمة تصلى وتسجد أمام شعار الشركة.

كما أن الإعلام الغربى قد اختزل الوطن العربى "فى غمطية ضيقة، فهو مجرد صحراء جرداء تختزن فى باطنها بحراً من البترول ويسكنه قوم لا توحى ملامحهم إلا بكونهم إما إرهابيين جبّاء، وإما شيوخاً أثرياء مفرطى البدانة يلهون بإسراف وسط راقصات شرقيات يتمايلن ويهززن أردافهن. حتى ديانة العرب (الإسلام) لم تسلم من هذا التحقير، فحين أراد هؤلاء الرسامون التعبير عن الارتفاع الكبير فى أسعار النفط لمصلحة المنتجين، عمدوا إلى تصوير المؤذنين للصلاة واقفين على المآذن وهم يتلقون آخر أخبار انهيارات أسعار الأسهم فى البورصات العالمية بدلاً من كلمات الآذان" (١).

إذا كان الإعلام الغربى يتداول مثل هذه الصورة النمطية عن العربى وعن المسلم، فهل مثل هذه التصرفات التحقيرية تتناسب مع المواثيق الدولية التى تنص على حرمة الإنسان وحقوقه؟ وهل يمكن أن تنطلق عملية الحوار فى مثل هذه المناخات.

إن العولمة التى هى هيمنة، واختراع، للمنظومات القيمية للأمم، ومحاولات لغزو الهويات الثقافية للشعوب، وهذا الغزو تقوم به الولايات المتحدة الأمريكية تحت ستار العولمة، وهى مشروع استعمارى يريدون من خلاله تحقيق القيادة المنفردة للعالم، وهى ما يسمى: الأحادية القطبية. والعولمة هذه غير العالمية التى هى حاجة، وأساسها إقرار بالتنوع، وهى دعوة للتعاون بين الأمم مع احترام الخصائص والخصوصيات، وهى فى جوهرها تبادل لمنجزات الحضارات، ولقاء حول المشترك الإنسانى هذا مع احترام قيم الخير والحق والعدل والجمال.

لقد دفعت هذه العولمة إلى ردات فعل عند الأمم ضد الأمريكى، وردات الفعل هذه كانت فى الغرب كما كانت فى العالم الإسلامى والأمة العربية، ومواقع أخرى فى العالم.

١ - كارلسون، انجمار، م.س.، ص ١٤ .

يأتى بين من تحدثوا عن هذه المسألة الإيطالية فرانسسكاماريا كوارو، وهى أستاذة الحضارة والآداب العربية فى مدينة نابولى، والتي قالت: "إن العولمة التى نحياها، تحاول أن تسيّر الثقافات ونظم العيش فى اتجاه التعميط، مما خلف ردود فعل رافضة، ومن ذلك جاء البحث عن توثيق العرى التى تشدّ كلاً منّا إلى هويته الثقافية، وأن يجد المرء مبتغاه فى فكره" (١).

إن تمسك الأمم بهويتها الثقافية فى مواجهة التعميط الذى تحاول الولايات المتحدة الأمريكية وملحقاتها باسم العولمة، قد عطل الحوار. هذا ما قرره فرانسسكاماريا كوارو قائلة: "ما أضرّ بمحاولات البدء فى الحوار وعطله، حملة قادتها الولايات المتحدة الأمريكية تبغى من خلالها تلميع صورتها لدى الأطراف المقابلة لها. بينما يتساءل الناس فى هذا البلد عن السبب الذى يجعل هذه التشكيلة الواسعة من الدول والأفراد تكنّ كرهاً مقيتاً بلدهم، تقوم الطبقة الحاكمة بالترويج لحملة توزيع الغذاء على الشعب الأفغانى، وكذلك ترجم هذا البلد بالقنابل بغية ضرب الإرهاب" (٢).

لقد طرح الشكوى نفسها هوبير فيدرين وزير خارجية فرنسا الأسبق حين أعلن بأن المشكلة مع الولايات المتحدة الأمريكية هى أنها تسعى للتعميط الثقافى، ولا تحترم هويات الأمم؛ قال: "ما هو إذاً هدفنا الحقيقى؟ إنه المحافظة على الهويات الثقافية فى العالم أجمع، وبالتالى على تنوع هذا العالم. يقلق الأمريكيون من قيام حالات الاحتكار عندما تفسد المنافسة فى سوقهم الداخلى، كما حصل مع شركة ميكروسوفت. والحال إن الولايات المتحدة فى صدد التحول، على صعيد الصناعات الثقافية الجماهيرية، إلى ميكروسوفت على المستوى العالمى، تشكل الثقافة والمنتجات الثقافية مصدر خلاف رئيسى مع الولايات المتحدة سواء داخل منظمة التجارة العالمية أو

١ - فى: الحوار الثقافى العربى الأوروبى: متطلباته وآفاقه، م.س.، ص ١٤٥.

٢ - فى: الحوار الثقافى العربى الأوروبى: متطلباته وآفاقه، م.س.، ص ١٤٨.

منظمة التعاون والتنمية، أو فيما يخص البلدان المرشحة لدخول الاتحاد الأوروبي. المؤكد أننا نطرح حول قضية التنوع الثقافي في العالم سؤالاً كبيراً جداً يتخطى اللغة والثقافة الفرنسيين، إنها أحد أكبر معارك الغد".^(١)

يعود السؤال مجدداً: إذا كان الإيطالي والفرنسي وهو غربي وأطلسي يطرح مثل هذه الشكوى من العولمة / الأمركة، وضرورة مواجهتها حفاظاً على الهوية الثقافية، فلماذا لا يكون الأمر نفسه عند المسلم والعربي الذي يشهد عدواناً سافراً على هويته ودينه ومقدساته وأرضه واقتصاده وأمنه ووحدته الوطنية؟ وهل يمكن أن يكون حوار حضاري من خلال إعلام يحمل مشروعاً فكرياً ينكر الآخر ويعمل لغزوه، والعدوان على كل ما يخصه؟

إن الإعلام كان ولا يزال في رأس قائمة الوسائل الأمريكية لبث الدعايات، والتضليل، والكل يعلم أن الولايات المتحدة أصدرت قانوناً بعد ١١ / ٩ / ٢٠٠١ يبيح الكذب في الإعلام من أجل تحسين صورة الولايات المتحدة، أو من أجل تحقيق مصالحها الاستعمارية. فالإعلام الأمريكي خاصة، والغربي في غالبه ينتج منه معوقات للحوار، و"إن استخدام الإعلام بأسلوب ومنهج يبعدانه عن منظومة قيمه الإنسانية ومبادئه الأخلاقية أضحى عملاً منظماً، وتقف الولايات المتحدة الأمريكية في طليعة الدول التي خرقت قوانينها الوطنية والتزاماتها الدولية وتجاوزاتها في هذا الميدان. وقدمت الحروب التي شنتها الولايات المتحدة خارج حدودها منذ الحرب العالمية الثانية ولغاية اليوم نماذج صارخة لمدى التجاوز المتعمد الذي مورس من أجل أن توظف الدعاية للحرب، والإعلام بشكل عام، في إطار أهداف السياسة الرسمية"^(٢).

١ - فيدرين، هوبير، فرنسا ومسار العولمة، ترجمة جبور الدويهي، بيروت، دار النهار، ط١، سنة ٢٠٠١، ص ٥٥، ٥٦.

٢ - ياسين، صباح، الإعلام: النسق القيمي وهيمنة القوة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، سنة ٢٠٠٦، ص ٣١.

هذا الإعلام الذى يسوق سياسة استعمارية لا يصلح ميداناً للحوار، وإذا أراد الغرب حواراً حضارياً من خلال الإعلام، فإن ذلك يوجب إعادة نظرياً فى المادة الإعلامية، وأساليب عرضها.

هل المسلمون والعرب جاهزون للحوار الحضارى من خلال الإعلام ؟

إن هذا السؤال يعبر عن إشكالية كبرى تحتاج وقفة تأمل مع الذات قبل التوجه لمحاورة الآخر الغربى أو الأمريكى أو سواهما. وإن المتابع يجد أن الكلام عن الحوار ومؤتمراته ومراكزه وأقسامه فى الجامعات، والكلام عن الوسطية ومؤتمراتها ومنتدياتها ومراكزها، قد كثر فى العقد الأول من هذا القرن الحادى والعشرين، وتحديداً بعد أحداث ١١ أيلول / سبتمبر ٢٠٠١م، وكأن هذه الفعاليات جاءت عملاً تبريرياً من قبل بعض الجهات أو الأفراد أو المؤسسات للقول للأمريكى والأطلسى والأجنبى: نحن دعاة حوار دينى أو حضارى، ودعاة وسطية فلا تصنفونا مع من تسمونهم إرهابيين.

لكن هذه الفعاليات تحت مسمى الحوار الحضارى أو الدينى أو الإعلامى أو الوسطية لم تغير من الأمر شيئاً. وكما سبق القول لا تزال صورة العربى والمسلم هى فى الإعلام الغربى، وفى كتاباتهم عموماً، ولا تزال النعوت الخشنة تنهال ضد المسلمين والعرب، وضد الإسلام والعروبة. ليس هذا فحسب وإنما لا تزال عمليات الغزو والاحتلال والاعتصاب سائرة فى طريقها، ولم تفعل هذه المؤتمرات شيئاً.

لقد كان لبعض هذه المؤتمرات مردودات سيئة وخطيرة حيث أعطت براءات ذمة لمجرمين، أو قدّمت لبعض الأعداء منابر يتحدثون من خلالها، وكان للمسلمين والعرب النتائج السلبية مما جنت يدا بعضهم.

إن أحداً لا ينكر أهمية الإعلام فى تصحيح الصورة المغلوطة التى نشرها بعضهم عن الإسلام سواء من الأعداء والخصوم، أو من أبناء الصف الذين حملوا أفاهيم ملتبسة،

وتأسس فكرهم من أفاهيم عمادها الغلو، وتعيش عند صاحب أفق ضيق. أو أن عدداً ممن تصدوا للحوار فعلوا ذلك بمبادرات فردية متناسين قاعدة الشورى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (٣٨) «الشورى»، كى يمارسوها قبل الإقدام على عمل كبير كالحوار. وفريق طرح عناوين للحوار ومراكز وملتقيات من موقع الضعف، والحوار يكون بين ندين، وأهم قواعد الحوار أن يكون كل منهما قد اعترف بالآخر. أما الحوار الذى يقوم من طرف واحد، أو بين ضعيف لا مشروع له، ولا مكنة أو حضور وقوة، وبين متغطرس يزعم أنه شعب مختار أو أنه دولة مختارة أو أمة متفوقة، فإنه حوار ضعيف مع ذاته لا يصفى إليه أحد، والدليل على هذا الكلام أن الكثير من مقررات المؤتمرات وتوصياتها، وعدداً من نصوص المواثيق وموادها لا تزال حبراً مسطراً على ورق، أو أنها مرقونة على أقراص مدمجة (C.D.) فى الحواسيب الآلية، ولم تكن لها بصمات تذكر.

وإذا خرجت بيانات وتوصيات من ملتقيات أو جلسات حوار إعلامى فإنها ستجد سداً أمامها هو الإعلام الأمريكى والغربى الذى فى مفردات خطابه ما يجعل الثقة به مفقودة، لا بل يؤسس للروح العدوانية وردات الفعل. والحقيقة هى أن "المغالطات المهنية والسياسية فى الموازنة بين متطلبات الأمن الأمريكى، وقضايا الديمقراطية وحقوق الإنسان، قد قادت الإعلام الأمريكى فى مخاطبته شعوب العالم إلى الوقوع فى مأزق الحقيقة والصدق. ولم يعد الأمل لمستقبل مشرق يتوافق مع الواقع السلبى للعلاقة بين أمريكا والكثير من شعوب العالم... إن الصدمة التى ولدها الإعلام الأمريكى بتعامله مع تلك القضايا، قد ولد تشاؤماً مفرطاً فى إمكانية صياغة عالم تسوده العقلانية والمصالح المشتركة... تراكمت بسبب مواصلة سياسة التوسع والهيمنة الإمبراطورية الأمريكية بشبهة لا حدود لها" (١).

هذه الإتهامات الامبراطورية تضع الولايات المتحدة في حالة صدامية مع الآخرين في مختلف الميادين الفكرية والسياسية والأمنية والاقتصادية، ومع المسلمين والعرب خاصة لأن مشروعاتها الاستعمارية المسمى: الشرق الأوسط الجديد يستهدفهم بشكل أساسي.

وأمام التحديات الكبرى يجد المتابع أن الإعلام العربي والإسلامي مقصّر في تصنيع المادة الإعلامية التي ترد التحديات وتستقطب المتلقي، وأبرز عامل هو الجانب السلطوي حيث توجه أنظمة الحكم الإعلام الرجعية التي تريدها، بالمقابل هناك إعلام وإعلاميون يبالغون في الحديث عن الحريات وعن الديمقراطية، ويدعون الجراءة في طرح المواقف، لكن الحصيلة لا تنم عن ذلك.

وهناك معوقات أخرى هي أن الإعلام الإسلامي والعربي لم يستطع حتى الآن امتلاك وكالة أنباء عالمية كبرى ينتشر العاملون فيها في أنحاء العالم كافة كي تكون له مصادره المستقلة، وما يحصل هو أن مصادر الوسائل الإعلامية العربية والإسلامية هي وكالات الأنباء الأجنبية التي تقدم لهم الخبر مبتسراً وربما مشوهاً أو موجهاً الوجهة التي قد تكون في خدمة مصالحهم.

يضاف إلى ذلك أن الغرب الاستعماري قد وظّف الإعلام في خدمة مشاريعه الاستعمارية فكانت الإذاعات ومحطات التلفزة والصحف الناطقة بالعربية وهي تابعة لهم، وأضيف لها مواقع في الشبكة البينية (الانترنت)، من أمثال هذه المحطات: (B.B.C) و (C.N.N.) و (Fox News)، وسلسلة محطات حديثة تحمل اسم "الحرّة" وهي تابعة ومصنوعة... الخ. هذا الإعلام الاستعماري الناطق بالعربية يحتاج إلى معالجة وإلى خطة للتخفيف من مؤثراته السلبية.

كما أنه هناك وسائل إعلامية أنشأها مقالون بالكلمة ومأجورون يحملون البضاعة الوافدة المسمومة باسم الإعلام العربي والإسلامي، يضاف إلى كل ذلك ضعف

الإمكانات عند وسائل الإعلام الإسلامية والعربية، وذلك يظهر من خلال الاستيراد العشوائى لأفلام وبرامج، وفقرات إعلانية لا تلتزم معايير قيم الإسلام ولا ترعى حرّماته ولا حرّمات الإنسان عموماً.

إن هذا الواقع يزيد البَلّة طيناً ويعقد الأمور، ومما يزيد فى مشكلة التفكك الحاصل على المستويين العربى والإسلامى، أنه لا توجد قراءة واحدة أو متقاربة للأحداث والنوازل، ولا تعتمد معايير قيمية واحدة عندما تأتى تحديات على الأمة.

والمسؤولية فى هذا ليست على فرد أو دولة أو مؤسسة، وإنما المسؤولية جماعية، فالكل مسؤول، علماً أن إمكانية المعالجة غير مستعصية سواء من خلال منظمة المؤتمر الإسلامى والمؤسسات التابعة لها وأبرزها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، أو جامعة الدول العربية ومؤسساتها وأبرزها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، حيث يحتاج الأمر فى الإعلام وما يتعلق به إلى وضع استراتيجيات مدروسة تستجيب للتحديات، وتضع الخطط الكافية، وتعمل لامتلاك التقنيات والآليات اللازمة، هذا مع قدر من الاستقلالية والحرية بعيداً من قيود الحكام والحكومات، لكن طبعاً مع مسؤولية وحكمة، كل ذلك تحتاجه المرحلة قبل أن يقدم أحد على حوار حضارى من خلال الإعلام، إذ كيف يكون دور للإعلام الإسلامى والعربى فى الحوار الحضارى، وهو غير مجهز ولا جاهز لهذه المهمة؟ ثمّ كيف يكون حوار مع آخر لا يعترف بالأمة ديناً وثقافة وحضارة ووجوداً بل يستبجح أرضها بالاحتلال والاعتصاب والقواعد العسكرية والاقتصادية والإعلامية والثقافية؟

إن العرب والمسلمين بحاجة للكثير فى حقل الإعداد والاستعداد والتنسيق من خلال مؤسساتهم الإقليمية السابقة الذكر قبل النزول إلى ساحة الحوار أما أن ينبرى فرد لينفرد، أو حكومة لتظهر بمظهر المحاور المتحضر، أو مؤسسة، فكل هذا لن يكون له وزن فى عالم متلاطم الأمواج، وفى واقع دولى مفتوحة الأطماع فيه على كل

الاحتمالات، ويوظفه الاستعماريون والصهاينة في مقدمتهم جهودهم لخدمة مصالحهم وأطماعهم، وتبرير احتلالهم للأرض واستباحة المقدسات، وبعدها نشر إعلام هابط ماجن ينشر الرذائل والمفاسد والمخدرات والبدع الخطيرة.

لا يقصد هذا العرض أن يزرع الإحباط، ولا أن يثبط الهمم، وإنما هو قليل من كثير المعاناة عسى أن يكون مع هذه الكلمات رؤية وجدّية للتأسيس لواقع أفضل، والكلمة تبقى لها فعلها، وتأثيرها ولو بعد حين.

توصيات واقتراحات :

إن الإعلام وحركة الحوار الحضاري يحتاجان على المستوى الدولي، ومن المسلمين والعرب خاصة إلى الأمور التالية :

١ - كل أمة لها هويتها الثقافية، وبالتالي لها مرجعيتها الفكرية التي توجه الإعلام وغير الإعلام، وبذلك تكون هناك خصوصيات، ومشاركات عامة بين الأمم، وهذه الأخيرة هي القابلة لأن يدور الحوار حولها.

٢ - الثقافات خاصة ولها ثوابت وأصول راسخة، والحضارات المجازات، واستجابات لتحديات، وهي عامة قابلة للانتقال، وتصلح لكل مجتمع، وتحتاج عند دخول مجتمع جديد أن تلتزم خصائصه.

٣ - يحتاج الإعلام إلى التوظيف في سبيل التعاون بين الأمم، والمقاصد هي كرامة الإنسان وسعادته، وحقوقه. وهذا يعني أن يطرح الإعلام المشترك الإنساني وأن يلتزمه في برامج.

٤ - لا يكون الحوار ما لم يوقف الإعلام الغربي ما يدور فيه، وهو إعلام - إلا القليل منه - مشحون بالتهمة للمسلمين بأنهم إرهابيون ويستخدم العنصرية ضد كل عربي وإسلامي، كما أنه يستخدم للعرب والمسلمين أفاهيم هي عبارة عن مغالطات

وأحقاد تدفع إليها المصالح الاستعمارية، والأطماع التى تتمظهر بالاستعمار الاستيطاني الاحتلالى الصهيونى، والاستعمار الاحتلالى من أجل السيطرة والسلب، وهذا الإعلام يؤسس للتنافر والأحقاد والمواجهات، ولا يوفر أى مناخ للحوار والتلاقى.

٥ - تصحيح المصطلحات والمفردات المستخدمة فى الإعلام، والتى تحدث التضليل وسوء الفهم، من ذلك: استخدام مفردة انتحار بدل استشهاد، وكلمة إرهاب بدل مقاومة، واسرائيل بدل فلسطين المحتلة... إلخ.

٦ - يحتاج العرب والمسلمون إلى تغيير ما هم عليه، وإلى امتلاك القوة والقدرات كى يفرضوا أنفسهم أنداداً على موائد الحوار وكى لا يكونوا محل تهميش أو لقمة للطامعين. وقد قال المفكر محمد عمارة بهذا الشأن ما يلى: "إن الغرب لن يغير من تصوّره لنا، وصورته عنّا إلا إذا غيّرنا نحن من وضعنا وثقلنا فى موازنات القوى والمصالح والإرادات الدولية... وعندما نكون فى الوضع المحترم، سيضطر الغرب نخباً وجماهير إلى تغيير تصوراتهم عنّا... وتلك هى تجربة الغرب مع اليابان والصين... وكذلك تجربته مع صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ - ٥٨٩ هـ / ١١٣٧ - ١١٩٣ م) فلقد أصبح فى الثقافة الغربية نموذج البطل الإنسانى النبيل لأنه قد أصبح - قبل ذلك - البطل الإنسانى والنبيل فى ميادين التدافع والصراع"^(١). فالمعادلة هى: إن الحق بغير القوة ضائع. والناس لا يصغون للضعيف، ولا يقبلون منه شيئاً، وبالمقابل تفرض الأمة نفسها على ساحة العمل الدولى فى الإعلام والحوار الحضارى، وتحتل مكانتها اللائقة. أما الساكنون والراكدون بلا حراك ولا حيوية وقدرة فلا يبالي بهم أحد.

١ - عمارة، د. محمد، فى فقه المواجهة بين الغرب والإسلام، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ط ١، سنة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣ م، ص ١٤٢.

وقد قال الشاعر التونسي أبو القاسم الشابي:

هو الكون حيّ يحبّ الحياة

ويكره الميّت مهما كبر

٧ - إن الحوار الحضاري الجادّ والمجدى يحتاج إعلاماً يتمتع بالصدقية، ويكسب ثقة الأطراف كلها، ويحترم خصائص الأمم وشرائعها، ويكون في رأس قائمة اهتماماته إسعاد الإنسان، ولهذه الغاية يكون هذا الإعلام في خدمة الحق في مواجهة الباطل، ونصرة قيم الخير لمحاربة الشر، ومساندة العدل في مواجهة الجور والظلم.

٨ - واجب الإعلام في التمهيد لحوار حضاري أن يتصدى لمعالجة الرواسب التاريخية للنزاع منذ حروب الفرنجة (الحروب الصليبية)، إلى الاستعمار والغزو الأجنبي ضد الأمة العربية والإسلامية، وصولاً إلى معالجة الاغتصاب الصهيوني الاستيطاني الاحلالي لفلسطين، ويكون ذلك بالانسحاب الكامل من الأرض المحتلة، وإعادة تها إلى أصحابها الحقيقيين، وحديثاً سحب المشروع الامبراطوري الأمريكي من خلال إزالة الاحتلال من العراق وأفغانستان، ووقف انتشار السلاح التدميري هنا وهناك، وأن يتوقف التدخل في الشؤون الداخلية للبلدان الإسلامية والعربية ولغيرها من قبل الأمريكي أو سواه من الغربيين. كل ذلك لأن الحوار لا يكون مع بقاء هذه الأشكال من العدوان والاحتلال، والدليل ما يلاحظه أي متابع من انتفاء تأثير ما يعقد من مؤتمرات على أرض الواقع وفي ساحات العمل.

٩ - أما الإعلام العربي والإسلامي، فإنه يحتاج إلى حركة تصويب وترشيد لما يشاع حول الإسلام من صور مغلوطة. وهذا يقتضى مواجهة ظواهر الغلو في الداخل، وعمليات الافتراء من الخارج، وأن يعتمد الإعلام إلى أطروحة إعلامية توحيدية على

المستوى الإسلامى، لأنه من غير الواقعى أن يسعى المسلمون لحوار حضارى مع الأمم، والحوار والتلاقى بينهم متوقفان.

١٠ - إن الإعلام المؤسس للحوار الحضارى يحتاج إعادة النظر فى المادة الإعلامية عند الجميع، وعندها يكون الأمر بصناعة إعلامية رشيدة لا تطاول فيها على أحد، ولا عدوان أو اتهام ضد الآخر، ولا وسيلة تنال من المقدسات والرموز.